



التَّوَاصُلُ اللُّغَوِيُّ الْإِنْسَانِيُّ: الْمُكَوِّنَاتُ وَالْمُمَيِّزَاتُ،

Components and Characteristics of Human Linguistic Communication.

أ. بُوغَزْدِيْس عَبْدُ الْكَرِيمِ *

طالب باحث في سلك الدكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وجدة (المملكة المغربية)

Abdelkarim.boughazdiss@ump.ac.ma

المعلومات المقال	المخلص:
تاريخ الارسال: 2021/01/24 تاريخ القبول: 2021/05/15	يَهْدَفُ هَذَا الْمَقَالُ إِلَى إِبْرَازِ أَهْمِيَّةِ اللُّغَةِ الَّتِي تُعْتَبَرُ ظَاهِرَةً اجْتِمَاعِيَّةً وَمَظْهَرًا مِنْ مَظَاهِرِ السُّلُوكِ الْإِنْسَانِيِّ، وَالَّتِي تَخْتَلِفُ مِنْ قَوْمٍ لِآخَرٍ، إِذْ إِنَّ اللُّغَةَ نِظَامًا تَوَاصُلِيًّا يُحَقِّقُ النُّزْعَةَ التَّوَاصُلِيَّةَ الَّتِي يَتَمَيَّزُ بِهَا الْإِنْسَانُ عَنْ بَقِيَّةِ الْكَائِنَاتِ الْآخَرَى، فَبِالتَّوَاصُلِ نَكْتَشِفُ جَوْهَرَ النِّظَامِ اللُّغَوِيِّ وَمَا تَعَكَّسَتْهُ اللُّغَةُ مِنْ تَفَاوُتٍ بَيْنَ طَبَقَاتِ الْمُجْتَمَعِ، وَبِالنَّاتِلِ؛ فَإِنَّ النَّظَرَ فِي مَبَادِي الثَّرَاثِ الْقَدِيمِ وَتَقْيِيمِهِ أَمْرٌ مَشْرُوعٌ خَاصَّةً إِذَا كَانَ الْهَدَفُ تَطْوِيرَ الْفِكْرِ اللُّغَوِيِّ الْعَرَبِيِّ الْقَدِيمِ.
الكلمات المفتاحية: ✓ اللُّغَةُ: ✓ الْأَصْوَاتُ: ✓ الْمُجْتَمَعُ: ✓ الْإِنْسَانُ: ✓ التَّوَاصُلُ: ✓ الظَّوَاهِرُ اللُّغَوِيَّةُ: ✓ الْمَحِيطُ الْجَمَاعِيُّ:	Abstract : This article aims at revealing the importance of language as an aspect of human behavior and a social phenomenon which differs from one community to another. The major function of language is communication, a tool which does make human different from all other living beings. Through communication, we discover the essence of linguistic system and what the language reflects in terms of disparities between social classes. Therefore, evaluating the principles of the early heritage is a very important step to develop the ancient Arabic linguistic thought.
Article info Received 2021/01/24 Accepted 2021/05/15 Keywords: ✓ Language: ✓ Sounds: ✓ Society: ✓ Human: ✓ Communication: Linguistic Phenomena: ✓ Social Environment	

الْمُقَدِّمَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى النَّبِيِّ الْأَمِينِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَبَعْدُ؛ فَإِنَّ اللُّغَةَ تُعَدُّ مِنْ أَهَمِّ الثَّوَابِتِ الَّتِي تَقُومُ عَلَيْهَا الْحَضَارَاتُ الْإِنْسَانِيَّةُ، إِذْ بِدُونِهَا لَا يُمَكِّنُ أَنْ تَقُومَ الْمُجْتَمَعَاتُ الْحَضَارِيَّةُ؛ لِأَنَّ اللُّغَةَ نَشَاطٌ لِكُلِّ ضَرْبٍ مِنَ الْفِكْرِ فِي مَوْرُوثِ الْحَضَارَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ، لِذَلِكَ نَجِدُ الْعُلُومَ الْعَرَبِيَّةَ جَعَلَتْ النَّصَّ الْمُقَدَّسَ بِمِثَابَةِ أَرْضِيَّةٍ خَصَبَةٍ عِنْدَ كُلِّ دَارِسِ الثَّرَاثِ الْعَرَبِيِّ الْإِسْلَامِيِّ؛ لِأَنَّ الْقَاعِدَةَ تُسْتَقَى مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ الَّذِي يُعْتَبَرُ دُسْتُورَ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، فَاللُّغَةُ فِي حَدِّ ذَاتِهَا تَتَأَلَّفُ مِنْ مَجْمُوعَةٍ مِنَ الْأَنْظِمَةِ، بِدَايَةِ النَّظَامِ الصَّوْتِيِّ الَّذِي يَبْنِي الْكَلِمَاتِ وَالْجُمْلِ وَصُورًا إِلَى أَبْنِيَةِ الْكَلَامِ الَّتِي تَتَأَلَّفُ مِنَ الْأَصْوَاتِ الَّتِي تَنْتَظِمُ فِي تَشْكِيلِ الصَّوْتِ، وَهَذَا الصَّوْتُ عِنْدَمَا نَجْعَلُهُ فِي كَلِمَاتٍ يَدْخُلُ فِي عِلَاقَاتٍ سِيَاقِيَّةٍ مَعَ كَلِمَاتٍ أُخْرَى لِبِنَاءِ التَّرْكِيبِ النَّحْوِيِّ الدَّلَالِيِّ الَّذِي هُوَ عَايَةُ الْإِرْتِبَاطَاتِ الصَّوْتِيَّةِ الْمَتَابَعَةِ بِالنَّظَامِ لِتَقْوُلٍ إِلَى مَعْنَى، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى لُغَةٍ تَوَاصُلِيَّةٍ بَيْنَ أَفْرَادِ الْمُجْتَمَعِ.

إِذَا، فَمَا الْمَقْصُودُ بِالتَّوَاصُلِ اللُّغَوِيِّ؟ وَمَا مُكَوِّنَاتُهُ فِي إِطَارِ التَّوَاصُلِ الْإِنْسَانِيِّ؟ وَمَا مُيِّزَاتُهُ؟

وَلِلْإِجَابَةِ عَنْ هَذِهِ السَّأُولَاتِ، ارْتَأَيْتُ أَنْ يَتَكَوَّنَ مَقَالِي هَذَا مِنْ مُقَدِّمَةٍ وَثَلَاثَةِ مَبَاحِثٍ وَخَاتِمَةٍ، ثُمَّ لَائِحَةُ الْمَصَادِرِ وَالْمَرَاجِعِ وَفَهْرِسِ الْمُخْتَوِيَّاتِ.

الْمَبْحَثُ الْأَوَّلُ: التَّوَاصُلُ اللُّغَوِيُّ

يُعَدُّ التَّوَاصُلُ مِنْ أَهَمِّ وَطَائِفِ اللُّغَةِ، يُفِيدُ الْوَصْلُ خِلَافَ الْفَصْلِ، فَهُوَ عَلَى صِيغَةٍ تَفَاعُلٍ، يَدُلُّ عَلَى الْمَشَارَكَةِ بَيْنَ الْفَرْدِ أَوْ الْمُجْتَمَعِ كُلِّهِ، وَعَلَى هَذَا الْأَسَاسِ حَدَّدَ عُلَمَاءُ الْعَرَبِ الْقَدَمَاءُ مَا هِيَ التَّوَاصُلُ اللُّغَوِيُّ وَبَيَّنُوا وَظِيفَتَهَا الَّتِي تُسْتَخْدَمُ لِأَجْلِهَا، وَهِيَ مُفْتَضِيَّاتُ الْحَاجَاتِ وَالرَّغَبَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ فِي الْمُجْتَمَعِ، وَقَدْ عَرَّفَ "ابْنُ جَنِّي"¹ (الْمُتَوَفَّى سَنَةَ 392 هـ) "حَدُّ اللُّغَةِ أَصْوَاتٌ يُعْبَرُ بِهَا كُلُّ قَوْمٍ عَنْ أَغْرَاضِهِمْ"²، فَهَذَا التَّعْرِيفُ يَشْمَلُ فِي طَيَّاتِهِ أَرْبَعَةَ جَوَابٍ إِبْرَاسِيَّةٍ، وَهِيَ كَالآتِي:

¹ هو أبو الفتح بن جني الموصلِي، كان أبوه مملوكا لسليمان بن فهد الأزدِي، وكان روميا وضبطوا اسمه بكسر الجيم وتشديد النون المكسورة وسكون الياء، قيل: إن ولادته كانت في بدء العصر العباسي الثاني، أما وفاته فكانت يوم الخميس السابع والعشرين من صفر سنة 392 هـ؛ ينظر كتابه الخصائص؛ تحقيق: محمد علي النجار، ج1، ص8_59_60.

² ابن جني، لخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، المكتبة العلمية، الجزء الأول، باب القول على اللغة، ص33.

أَوَّلًا: حَصَرَ ابْنُ جَنِّي الْأَصْوَاتَ فِي الْجَانِبِ الْمَنْطُوقِ لَا الْمَكْتُوبِ، فَعُلَمَاءُ الْعَرَبِيَّةِ لَمْ يَتَنَاوَلُوا اللُّغَةَ فِي صِيغَتِهَا الْمَكْتُوبَةِ، وَإِنَّمَا فِي صِيغَتِهَا الْمَنْطُوقَةِ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا أَقْرَبَ إِلَى الْإِسْتِعْمَالِ الَّذِي يَقْتَضِي الْحَوَارَ وَالْكَلامَ؛ بِمَعْنَى أَصْوَاتٍ يَنْطَلِقُ بِهَا الْمُتَكَلِّمُ سَوَاءً أَكَانَتْ عَنْ قَصْدٍ، أَوْ عَنْ غَيْرِ قَصْدٍ.

ثَانِيًا: وَظِيفَةُ اللُّغَةِ تَتَجَسَّدُ فِي قَوْلِهِ: "يُعَبَّرُ بِهَا"؛ إِذْ بِالتَّعْبِيرِ يُبْرَزُ مِنْ خِلَالِهَا الْمُخَاطَبُ؛ أَيُّ الْمُرْسِلِ، أَوْ الْمُتَكَلِّمِ عَنْ أَفْكَارِهِ وَمَشَاعِيرِهِ.

ثَالِثًا: اللُّغَةُ ظَاهِرَةٌ اجْتِمَاعِيَّةٌ تُوظَّفُ فِي الْمَجَالَاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ فِي الْمُحِيطِ الْإِنْسَانِي، وَفَهْمُ الْمَعْنَى الْاجْتِمَاعِي لِلتَّوَاصُلِ اللُّغَوِيِّ، وَهَذَا مَا عَبَّرَ عَنْهُ ابْنُ جَنِّي بِـ "كُلِّ قَوْمٍ"؛ أَيُّ كُلِّ مُجْتَمَعٍ، فَالْإِسْتِعْمَالُ وَالْعُرْفُ الْاجْتِمَاعِي عَامِلَانِ أَاسَاسِيَّانِ فِي تَحْدِيدِ مَعَانِيهَا طَبَقًا لِحَاجَاتِ الْمُجْتَمَعِ وَنُمُوهِ.

رَابِعًا: يَتَضَمَّنُ قَوْلُ ابْنِ جَنِّي "عَنْ أَغْرَاضِهِمْ" جَمِيعَ مَا يَرْعُبُ فِيهِ الْإِنْسَانُ مِنْ اِحْتِيَاجَاتٍ وَمُتَطَلِّبَاتٍ.

هَذَا تَحْلِيلٌ مَا وَرَدَهُ "ابْنُ جَنِّي" فِي تَعْرِيفِهِ لِلُّغَةِ، وَفِي هَذَا الْمَقَامِ لَا بَأْسَ مِنْ إِيرَادِ رَأْيِ أَحَدِ الْمُحَدِّثِينَ الَّذِي يَتِمَثَّلُ فِي شَخْصِ "سُوسِيَر" ¹ لِرِنَاطِ الصَّلَةِ بَيْنَ الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ، الَّذِي يَرَى أَنَّ اللُّغَةَ تَتِمَثَّلُ فِي "ثَلَاثَةِ مُصْطَلَحَاتٍ أَاسَاسِيَّةٍ" ²، وَهِيَ: اللِّسَانُ، وَاللُّغَةُ، وَالْكَلامُ.

يَدُلُّ اللِّسَانُ عَلَى النِّظَامِ الْعَامِّ لِلُّغَةِ الَّذِي يَضُمُّ كُلَّ مَا يَتَعَلَّقُ بِكَالَامِ الْبَشَرِ، وَهُوَ بِكُلِّ بَسَاطَةٍ لِسَانٌ؛ أَيُّ قَوْمٌ مِنَ الْأَقْوَامِ، وَاللُّغَةُ فِي نَظَرِهِ وَاقِعَةٌ اجْتِمَاعِيَّةٌ. وَبَيْنَ اللِّسَانِ وَاللُّغَةِ، يَقُولُ سُوسِيَرُ: لَا يَنْبَغِي الْخَلْطُ بَيْنَهُمَا؛ لِأَنَّ اللُّغَةَ جُزْءٌ مِنَ اللِّسَانِ، وَهِيَ فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ نَتَاجُ اجْتِمَاعِيٍّ لِمَلَكَةِ اللِّسَانِ. أَمَّا الْكَالَامُ فَإِنَّهُ فِعْلٌ كَالَامِيٌّ مَلْمُوسٌ بَيْنَ طَرَفَيْنِ.

الْمَبْحَثُ الثَّانِي: مُكَوِّنَاتُ التَّوَاصُلِ الْإِنْسَانِي

نَتَحَدَّثُ فِي هَذَا الْمَقَامِ عَنِ الْمُكَوِّنَاتِ الَّتِي يَتَكَوَّنُ مِنْهَا التَّوَاصُلُ اللُّغَوِيُّ، وَمَا يَتَرْتَّبُ عَنْهَا دَاخِلُ الْعَمَلِيَّةِ التَّوَاصُلِيَّةِ، وَهِيَ كَالْتَّالِي:

- الصَّوْتُ: هُوَ الْجَانِبُ الْأَسَاسِيُّ لِعَمَلِيَّةِ التَّوَاصُلِ وَبِدُونِهِ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ تَوَاصُلٌ شَفَهِيٌّ.

¹ دو سوسير يعبر بمثابة الأب للمدرسة البنوية في علم اللسانيات، "قال: عن اللغة يجب أن تعتبر ظاهرة اجتماعية"، ومن أشهر آثاره بحث في الألسنية العامة، توفى سنة 1913.

² أحمد مومن، اللسانيات: النشأة والتطور، ديوان المطبوعات الجامعية، ط2، سنة 2005، ص123.

³ فداء محمد غانم، اضطرابات النطق واللغة "أسبابها... طرق العلاج"، عمان: دار الجنان للنشر والتوزيع، ط1، سنة 2011، ص09.

- النُّطْقُ: هُوَ الْجَانِبُ الَّذِي يُعْنَى بِعَمَلِيَّةِ إِنْتَاجِ الْأَصْوَاتِ اللُّغَوِيَّةِ وَلَا بُدَّ لِأَعْضَاءِ النُّطْقِ مِنَ الْحَرَكَةِ بِطَرِيقَةٍ مُحَدَّدَةٍ وَدَقِيقَةٍ لِإِنْتِاجِ الصَّوْتِ الْمَرْغُوبِ فِيهِ.
- اللُّغَةُ: هِيَ النَّظَامُ الَّذِي يُعْنَى بِتَشَكِيلِ الْكَلِمَاتِ وَالتَّرَاكِبِ الْمُخْتَلِفَةِ وَتَحْدِيدِ مَعَانِيهَا وَاسْتِخْدَامَاتِهَا الْمُنَاسِبَةِ، وَيُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ اللُّغَةُ مَنْطُوقَةً، أَوْ مَكْتُوبَةً، أَوْ عَنْ طَرِيقِ الْإِشَارَاتِ.
- الطَّلَاقَةُ: هِيَ انْسِيَابُ السَّهْلِ السَّلْسِ لِلْكَلامِ بِشَكْلِ مُتَوَاصِلٍ وَمُعَدَّلٍ طَبِيعِي دُونَ الْحَاجَةِ لِجُهِدٍ يُذَكَّرُ، وَالطَّلَاقَةُ شَرْطٌ لَازِمٌ لِاعْتِبَارِ الْكَلَامِ طَبِيعِيًّا.
- السَّمْعُ: هُوَ اسْتِيعَابُ الْكَلَامِ الْمَنْطُوقِ، مِمَّا يُؤَدِّي إِلَى اكْتِسَابِ الْأَصْوَاتِ اللُّغَوِيَّةِ الْمُخْتَلِفَةِ. وَتُعْتَبَرُ هَذِهِ الْمَكُونَاتُ أَسَاسِيَّةً لِعَمَلِيَّةِ التَّوَاصُلِ؛ لِأَنَّ التَّوَاصُلَ عِبَارَةٌ عَنْ نَقْلِ، أَوْ تَبَادُلِ الْمَعْلُومَاتِ بَيْنَ طَرَفَيْنِ أَوْ أَكْثَرٍ، فَمِنْ سِمَاتِ التَّوَاصُلِ أَنَّهَا:
- عَمَلِيَّةٌ تَفَاعُلِيَّةٌ بَيْنَ الْأَفْرَادِ.
- اِلْتِمَادٌ مِنْهُ نَقْلُ الْمَعْرِفَةِ أَوْ تَبَادُلِهَا.
- اِلْتِمَاعٌ مِنْهُ إِحْدَاثُ تَغْيِيرٍ مَرْغُوبٍ فِي سُلُوكِ الْآخَرِ.
- وَعَلَى هَذَا الْأَسَاسِ يُمَكِّنُ الْقَوْلُ أَنَّ اللُّغَةَ نِظَامٌ مَشَقَّرٌ مِنَ الرُّمُوزِ¹، وَيَتَمَيَّزُ بِأَنَّهُ:
- صَوْتِيٌّ: أَيُّ أَنَّهُ يَتَأَلَّفُ مِنْ أَصْوَاتٍ تَنْجُمُ عَنْ جِهَازِ النُّطْقِ الْبَشَرِيِّ.
- إِنْسَانِيٌّ: أَيُّ أَنَّهُ نِتَاجٌ لِلْجُهِدِ الْاجْتِمَاعِيِّ الْبَشَرِيِّ.
- اعْتِبَاطِيٌّ: أَيُّ أَنَّهُ يَتَقَرَّرُ اجْتِمَاعًا دُونَ ضَرُورَةِ ارْتِبَاطِ أَيِّ زَكْنٍ لُغَوِيٍّ بِأَيِّ مَعْنَى مُعَيَّنٍ.
- نِظَامِيٌّ: أَيُّ أَنَّهُ يَخْضَعُ لِقَوَاعِدٍ نِظَامِيَّةٍ تَأْسِيسِيَّةٍ.
- إِبْدَاعِيٌّ: أَيُّ أَنَّهُ يَحْمِلُ مَا لَا نِهَايَةَ مِنَ التَّرَاكِبِ اللُّغَوِيَّةِ فِي أَيِّ لُغَةٍ.
- مِنْ خِلَالِ مَا سَبَقَ يَتَضَحُّ أَنَّ اللُّغَةَ بَجُمُوعَةٍ مِنَ الْأَنْظِمَةِ التَّوَاصُلِيَّةِ، إِذْ إِنَّهَا مُرْتَبِطَةٌ وَمُتَمَاسِكَةٌ فِيمَا بَيْنَهَا؛ لِأَنَّ أَصْلَ اللُّغَةِ مُحَاكَاةُ الْأَصْوَاتِ عَلَى حَدِّ تَغْيِيرِ ابْنِ حِجِّي، وَقَدْ ذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى أَنَّ الْعِبَارَاتِ كُلُّهَا إِنَّمَا أَوْقَعَتْ عَلَى حِكَايَةِ الْأَصْوَاتِ وَقْتُ وَقُوعِ الْأَفْعَالِ، أَلَا تَرَى أَنَّ الْحُضْمَ لِكُلِّ رَطْبٍ، وَالْقَضْمَ لِكُلِّ يَابِسٍ، وَبَيْنَ الرُّطْبِ وَالْيَابِسِ مَا بَيْنَ الْحَيِّ وَالْقَافِ مِنَ الرِّخَاوَةِ وَالصَّلَابَةِ، فَاللُّغَةُ تُقَدِّمُ لَنَا مُوَدَّجًا لِلْبَنِيَّةِ الْعَلَائِقِيَّةِ بَيْنَ الْفَرْدِ وَالْمُجْتَمَعِ كُلِّهِ. يَقُولُ ابْنُ حَزْمٍ: "قُوَّةُ اللُّغَةِ فِي قُوَّةِ أَهْلِهَا"²، وَقَالَ ابْنُ خَلْدُونٍ: "عَلَبَةُ اللُّغَةِ بِعَلَبَةِ أَهْلِهَا"³.

¹ فداء محمد غانم، اضطرابات النطق واللغة "أسبابها... طرق العلاج"، عمان: دار الجنان للنشر والتوزيع، ط1، سنة 2011، ص54.

² محمد سبيلا وعبد السلام بنعبد العالي، اللغة، دار توبقال للنشر، ص58.

³ محمد سبيلا وعبد السلام بنعبد العالي، اللغة، دار توبقال للنشر، ص58.

اللُّغَةُ إِذَنْ مَلَكَةُ لُغَوِيَّةٌ وَوَسِيلَةٌ لِكُلِّ قَوْمٍ لِلتَّعْبِيرِ عَنْ أَغْرَاضِهِمْ وَفِي هَذَا بَيَانٌ لِلْوُضُوفَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ بَيْنَ الْفَرْدِ وَحَيْثُ تَشْتَرِكُ الْعُلُومُ الْإِنْسَانِيَّةُ فِي اهْتِمَامِهَا بِاللُّغَةِ بِوَصْفِهَا أَهَمَّ مَظَاهِرِ السُّلُوكِ الْإِنْسَانِيِّ، وَوَسِيلَةُ اتِّصَالِ بَيْنِ مُكَوِّنَاتِ الْجَمَاعَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ، فَيَأْتِي عِلْمُ اللُّغَةِ الْاجْتِمَاعِي فِي هَذَا الصَّدَدِ لِيَهْتَمَّ بِقَضَايَا الْعَلَاqَةِ بَيْنَ اللُّغَةِ وَالْمُجْتَمَعِ، بِاعْتِبَارِهِ أَدَاةً تَوَاصُلِيَّةً دَاخِلَ الْمُجْتَمَعِ ضِمْنَ شَبَكَةٍ مِنَ الْعَلَاqَاتِ التَّوَاصُلِيَّةِ الَّتِي يَنْخَرِطُ فِيهَا الْفَرْدُ بِشَكْلِ عَفْوِي وَإِرَادِي مَعَ الْأَشْخَاصِ الْمُحِيطِينَ بِهِ فِي مُسْتَوَيَاتٍ وَوَضْعِيَّاتٍ مُخْتَلِفَةٍ. وَتُصْبِحُ اللُّغَةُ بِهَذَا الْمَعْنَى أَدَاةً تَوَاصُلِيَّةً اجْتِمَاعِيَّةً لَا تَكْتَفِي بِتَمْرِيرِ خِطَابٍ مُعَيَّنٍ، بَلْ هِيَ جُزْءٌ مِنْ ذَلِكَ الْخِطَابِ، بَلْ هِيَ خِطَابٌ¹.

عِلْمُ اللُّغَةِ الْاجْتِمَاعِي يَدْرُسُ اللُّغَةَ مِنْ خِلَالِ عِلَاقَتِهَا بِالْعَوَامِلِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ الْمُخْتَلِفَةِ مِثْلَ الطَّبَقَاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ، مُسْتَوَى التَّعْلِيمِ، الْأَصُولِ الْعَرَفِيَّةِ، وَالْعَامِلِ اللَّسَانِيِّ الَّذِي يَدْرُسُ الظُّوَاهِرَ الْاجْتِمَاعِيَّةَ مِنْ خِلَالِ الْعَادَاتِ وَالتَّقَالِيدِ؛ لِأَنَّ الْمَهْدَفَ الدَّائِمَ لِكُلِّ مُجْتَمَعٍ هُوَ تَوْعُلُ الْفَرْدِ بِعُضُوءِيَّتِهِ دَاخِلَ الْمُجْتَمَعِ اللَّغَوِيِّ لِلتَّوَاصُلِ بِاللُّغَةِ لَا فِي حَيَاتِهِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ فَحَسْبُ بَلْ فِي سُلُوكِهِ وَإِحْسَاسِهِ وَتَفْكِيرِهِ الشَّخْصِيِّ. أَمَّا عُضُوءِيَّتُهُ الشَّخْصِيَّةُ فِي مُحِيطِهِ الْاجْتِمَاعِيِّ، فَتَعْتَمِدُ أَسَاساً عَلَى قُدْرَتِهِ عَلَى الْإِتِّصَالِ بِأَصْدِقَائِهِ دَاخِلَ الْمُحِيطِ الَّذِي يَعِيشُ فِيهِ، وَهَذَا التَّوَاصُلُ بِدَوْرِهِ عَامِلٌ أَسَاسِيٌّ فِي تَمْوُّهِ بِاعْتِبَارِهِ فَرْداً دَاخِلَ الْمُجْتَمَعِ.

وَعَلَى هَذَا الْأَسَاسِ يُعْتَبَرُ التَّوَاصُلُ الْوَسِيلَةُ الْفَعَالَةُ بَيْنَ الْفَرْدِ وَالْمُحِيطِ الَّذِي يَعِيشُ فِيهِ الْإِنْسَانُ، فَهَذَا التَّوَاصُلُ عَلَى أَنْوَاعٍ وَهِيَ كَالآتِي:

- تَوَاصُلٌ دَاخِلِيٌّ: يَكُونُ بَيْنَ الْفَرْدِ وَنَفْسِهِ؛ بِمَعْنَى أَنَّ الْفَرْدَ يَتَحَدَّثُ إِلَى نَفْسِهِ دَاخِلِيًّا عَنِ الْأَشْيَاءِ الْإِيجَابِيَّةِ وَالسَّلْبِيَّةِ الْمُحِيطَةِ بِهِ وَالْمَوْجُودَةِ فِي حَيَاتِهِ.

- تَوَاصُلٌ خَارِجِيٌّ: يَكُونُ بَيْنَ الْفَرْدِ وَالْأَشْخَاصِ الْمُحِيطِينَ بِهِ، وَهَذَا يَحْدُثُ اخْتِكَائًا وَتَفَاعُلًا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ أَثْنَاءَ الْأَحْدَاثِ الْيَوْمِيَّةِ الَّتِي يَعِيشُونَهَا فِي مُحِيطِهِمْ الْاجْتِمَاعِيِّ.

- تَوَاصُلٌ اجْتِمَاعِيٌّ: يَكُونُ بَيْنَ الْفَرْدِ وَالْأَصْدِقَاءِ وَالْعَائِلَةِ، هَذَا الصَّنْفُ يَهْدَفُ إِلَى الْمُحَافَظَةِ عَلَى الْعَلَاqَاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ بَيْنَ الْفَرْدِ وَالْأَشْخَاصِ الْمُحِيطِينَ بِهِ لِهَدَفِ مُشَارَكَتِهِمْ فِي الْأَفْكَارِ، وَالْمُعْتَقَدَاتِ، وَالْعَادَاتِ، وَالتَّقَالِيدِ السَّائِدَةِ فِي هَذَا الْمُجْتَمَعِ.

نَسْتَنْتِجُ أَنَّ التَّوَاصُلَ فِي شَكْلِهِ الْعَامُّ حَدَثٌ حَاصِلٌ بَيْنَ مُرْسِلٍ وَمُسْتَقْبَلٍ؛ حَيْثُ يَقُومُ الْمُرْسِلُ بِإِرْسَالِ رِسَالَتِهِ إِلَى الْمُسْتَقْبَلِ، وَهَذِهِ الرِّسَالَةُ تَتَضَمَّنُ مَوْضُوعاً مُحَدَّداً عَبْرَ قَنَاةٍ يَخْتَارُهَا الْمُتَكَلِّمُ لِيَصِلَ بِهَا إِلَى مَرْجِعٍ مُنَاسِبٍ ذَا نَتِيجَةٍ إِيجَابِيَّةٍ.

¹ عبد الكريم بوفرة، علم اللغة الاجتماعي، مدخل نظري، أستاذ التعليم العالي بكلية الآداب والعلوم الإنسانية وحدة، المغرب، منشورات الألوكة، ص 02.

الْمَبْحَثُ الثَّالِثُ: "مُمَيِّزَاتُ اللُّغَةِ"

يُمْكِنُ رَصْدُ هَذِهِ الْمُمَيِّزَاتِ¹ عَلَى الشَّكْلِ الْآتِي:

- اللُّغَةُ شَيْءٌ مُحَدَّدٌ ضِمْنَ الْكُنْتَلَةِ غَيْرِ الْمُتَجَانِسَةِ لِعَنَاصِرِ اللِّسَانِ، وَيُمْكِنُ تَحْدِيدُ مَوْقِعِهَا فِي الْجُزْءِ الْمُحَدَّدِ لِدَائِرَةِ الْكَلَامِ فِي الْمَكَانِ الَّذِي تَرْتَبِطُ فِيهِ الصُّورَةُ السَّمْعِيَّةُ بِالْفِكْرَةِ، فَهِيَ الْجَانِبُ الْاجْتِمَاعِيُّ لِلِّسَانِ، تَقَعُ خَارِجَ الْفَرْدِ الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ أَبَدًا أَنْ يَخْلُقَهَا بِمُفْرَدِهِ، فَلَا وُجُودَ لِلُّغَةِ إِلَّا بِنَوْعٍ مِنَ الْإِتِّفَاقِ الَّذِي يَتَوَصَّلُ إِلَيْهِ أَعْضَاءُ مُجْتَمَعٍ مُعَيَّنٍ، وَعَلَى الْفَرْدِ أَنْ يَقْضِيَ فِتْرَةً مُعَيَّنَةً يَتَعَلَّقُ فِيهَا بِوُضُوعِ اللُّغَةِ، فَالطُّفُلُ مَثَلًا يُدْرِكُ هَذِهِ الْوُضُوعَ بِصُورَةٍ تَدْرِجِيَّةٍ لِفَهْمِ اللُّغَةِ.

- اللُّغَةُ تَخْتَلِفُ عَنِ الْكَلَامِ فِي أَنَّهَا شَيْءٌ يُمْكِنُ دِرَاسَتُهُ بِصُورَةٍ مُسْتَقِلَّةٍ، فَاللُّغَاتُ الْمَيِّتَةُ مَعَ أَنَّهَا لَمْ تُعَدَّ تُسْتَخْدَمُ فِي الْكَلَامِ نَسْتَطِيعُ بِسَهُولَةٍ أَنْ نَتَعَلَّمَ أَنْظِمَتَهَا اللُّغَوِيَّةَ فَتَتَخَلَّصُ مِنْ بَقِيَّةِ عَنَاصِرِ اللِّسَانِ الْآخَرَى.

- اللِّسَانُ غَيْرُ مُتَجَانِسٍ، أَمَّا اللُّغَةُ فَمُتَجَانِسَةٌ، فَهِيَ نِظَامٌ مِنَ الْإِشَارَاتِ جَوْهَرُهُ الْوَحِيدُ الرَّبْطُ بَيْنَ الْمَعَانِي وَالصُّورَةِ الصَّوْتِيَّةِ.

- اللُّغَةُ شَيْءٌ مَلْمُوسٌ، كَمَا أَنَّ الْكَلَامَ شَيْءٌ مَلْمُوسٌ، ثُمَّ إِنَّ الْإِشَارَاتِ اللُّغَوِيَّةَ يُمْكِنُ إِدْرَاكُهَا بِالْحَوَاسِّ؛ حَيْثُ يُمْكِنُ تَحْوِيلُهَا إِلَى رُمُوزٍ كِتَابِيَّةٍ تَقْلِيدِيَّةٍ.

إِنَّ إِمْكَانِيَّةَ تَحْوِيلِ عَنَاصِرِ اللُّغَةِ إِلَى أَشْكَالٍ تُسَاعِدُ الْمَعَاجِمَ وَكُتُبَ النَّحْوِ عَلَى وَصْفِ اللُّغَةِ بِدِقَّةٍ؛ لِأَنَّ اللُّغَةَ ذَخِيرَةٌ مِنَ الصُّورِ الصَّوْتِيَّةِ، وَالْكِتَابَةِ هِيَ هَيْئَةُ هَذِهِ الصُّورِ الَّتِي تُدْرِكُ بِالْحَوَاسِّ؛ لِأَنَّ اللُّغَةَ كُنْزٌ اجْتِمَاعِي بَيْنَ الْأَفْرَادِ، وَالْكَلَامُ نَشَاطٌ شَخْصِيٌّ لِكُلِّ فَرْدٍ فِي الْجَمَاعَةِ.

وَالْمَلَاخِظُ أَنَّ تَطَوُّرَ اللُّغَةِ فِي جَانِبِهَا الصَّوْتِيِّ أَكْثَرُ شَيْعًا، وَالْجَانِبُ الْمَنْطُوقُ فِي اللُّغَةِ عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ يُمَارَسُ حُرِّيَّةً أَكْثَرَ مِنَ الْجَانِبِ الْمَكْتُوبِ، إِذْ إِنَّ اللُّغَةَ تُصَادَفُ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ تَرَكِيبَاتٍ صَوْتِيَّةٍ لَا تَظْهَرُ فِي الْكَلَامِ الْمَكْتُوبِ، وَلِهَذَا يَنْفَصِلُ الصَّوْتُ عَنِ صُورَتِهِ وَخَيْرُ دَلِيلٍ عَلَى ذَلِكَ مَا تُشَاهِدُهُ فِي كَثِيرٍ مِنَ اللُّغَاتِ مِنْ مُخَالَفَةِ النُّطْقِ لِلْكِتَابَةِ، وَذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ: (قَلْبٌ، أَلْبٌ، كَلْبٌ). وَمَا يُمَدُّ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ يُمَدُّ فِي اللُّغَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ وَالْإِنْجِلِيزِيَّةِ، لِذَلِكَ يَتِمَّيزُ التَّطَوُّرُ الصَّوْتِيُّ بِخَصَائِصٍ مُتَعَدِّدَةٍ ذَكَرَهَا رَمْضَانُ عَبْدِ التَّوَّابِ فِي كِتَابِهِ "التَّطَوُّرُ اللُّغَوِيُّ مَظَاهِرُهُ وَعِلَلُهُ وَقَوَائِينُهُ"²، نَذْكُرُ بَعْضًا مِنْهَا، وَهِيَ كَالْآتِي:

¹ دو سوسير، علم اللغة العام، ترجمة: يوبيل يوسف عزيز، مراجعة النص العربي: مالك يوسف المطليبي، سلسلة كتب شهرية تصدر عن دار آفاق عربية، ص33،

² رمضان عبد التواب، التطور اللغوي، مظاهره وعمله وقوانينه، الناشر مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، سنة 1997، ص20.

— أَنَّهُ غَيْرُ شُعُورِي؛ أَيُّ نِلْقَائِي وَلَا تَدْخُلُ فِيهِ الْإِرَادَةُ الْإِنْسَانِيَّةُ، وَعَلَّلَ هَذَا فَنَدْرِيسُ بِقَوْلِهِ: الطِّفْلُ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ يَقُومُ بِنَفْسِ الْحَرَكَاتِ الصَّوْتِيَّةِ الَّتِي يَقُومُ بِهَا أَبَوَاهُ، مَعَ أَنَّهُ يُخَالِفُهُمَا، فَعَدَمُ شُعُورِيَّةِ التَّغْيِيرِ هُوَ الَّذِي يُفَسِّرُ لَنَا اسْتِمْرَارَهُ؛ لِأَنَّ الطِّفْلَ قَدْ يَسْعَى إِلَى تَصْحِيحِ خَطِئِهِ لَوْ أَنَّهُ شَعَرَ بِهِ¹.

— أَنَّهُ يَسِيرُ بِطُءٍ وَتَدَرُّجٍ، فَتَطَوُّرُ الْأَصْوَاتِ لَا يَخْدُثُ فَجَاءَةً بَيْنَ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ وَإِنَّمَا يَظْهَرُ أَثَرُهُ بَعْدَ أَجْيَالٍ، وَقَدْ أَضَافَ فَنَدْرِيسُ قَائِلًا: "النِّظَامُ الصَّوْتِيُّ بَعِيدٌ كُلُّ الْبُعْدِ عَنْ أَنْ يَكُونَ ثَابِتًا طَوَالَ تَطَوُّرِ لُغَةٍ مِنَ اللُّغَاتِ، وَيَسْتَطِيعُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَفْهَمَ ذَلِكَ بِسُهُولَةٍ إِذَا فَكَّرَ فِي الصُّورَةِ الَّتِي يَنْتَقِلُ بِهَا وَفِي الشُّرُوطِ الَّتِي تَمَسَّكُ عَلَيْهَا تَوَازُنُهُ"².

— أَنَّهُ مَحْدُودٌ بِمَكَانٍ مُعَيَّنٍ؛ إِذْ يَقُولُ عَلِيُّ عِنْدَ الْوَاحِدِ وَائِي، فِي كِتَابِهِ "عِلْمُ اللُّغَةِ": إِنَّ مُعْظَمَ ظَوَاهِرِ التَّطَوُّرِ الصَّوْتِيِّ يَفْتَقِرُ أَثَرَهَا عَلَى بَيِّنَةٍ مُعَيَّنَةٍ، وَلَا نَكَادُ نَعُثِّرُ عَلَى تَطَوُّرِ صَوْتِيٍّ لِحَقِّ جَمِيعِ اللُّغَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ فِي صُورَةٍ وَاحِدَةٍ، فَيَتَحَوَّلُ صَوْتُ "الْقَافِ" إِلَى "هَمْزَةٍ" مَثَلًا: قُلْتُ، أُلْتُ، فَلَمْ يَظْهَرْ هَذَا إِلَّا فِي بَعْضِ الْمَنَاطِقِ الَّتِي تَتَكَلَّمُ الْعَرَبِيَّةُ³.

وَهَذَا رَأَى رَمَضَانَ عَبْدَ التَّوَّابِ أَنَّهُ يُمَكِّنُنَا أَنْ نُفَسِّرَ اخْتِلَافَ اللَّهَجَاتِ الْعَرَبِيَّةِ الْقَدِيمَةِ فِي الظَّاهِرَةِ اللُّغَوِيَّةِ الْوَاحِدَةِ، فَهَذَا رَاجِعٌ إِلَى الْبَيِّنَةِ الَّتِي نَشَأُ فِيهَا الْفَرْدُ، فَهُنَاكَ مَثَلًا مَنْ يَنْطَلِقُ "قَلْبٌ" فِي بَيِّنَةٍ مَا وَهُنَاكَ مَنْ يَنْطَلِقُ "أَلْبٌ" فِي بَيِّنَةٍ اجْتِمَاعِيَّةٍ أُخْرَى، وَبِمَا يَكُونُ الْأَمْرُ عَيْنًا نُطْفِيًّا؛ لِأَنَّ الظَّوَاهِرَ اللُّغَوِيَّةَ تَتَحَكَّمُ فِيهَا عَوَامِلُ بَيِّنَةٍ وَاجْتِمَاعِيَّةٌ وَنَفْسِيَّةٌ وَتَارِيخِيَّةٌ، فَالْعَامِلُ الْجُغَرَاوِيُّ عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ لَا الْحَصْرَ يَجْعَلُ اللُّغَةَ مُنْحَصِرَةً فِي مَجَالٍ جُغَرَاوِيٍّ مُعَيَّنٍ وَلَا يَحْتَكُّ بِبَاقِي الْعَوَامِلِ الْأُخْرَى، بِمَا يَجْعَلُ اللُّغَةَ قَوِيَّةً وَصَامِدَةً.

الْخَاتِمَةُ:

حِتَامًا لَا يَسْعُنَا إِلَّا أَنْ نَقُولَ: إِنَّ اللُّغَةَ أَصْوَاتٌ يَسْتَعْمِلُهَا الْإِنْسَانُ فِي مَجَالِ التَّعْبِيرِ عَنْ أَغْرَاضِهِ وَمَقَاصِدِهِ؛ لِأَنَّهَا الْوَسِيلَةُ لِلتَّعْبِيرِ عِنْدَ كُلِّ فَرْدٍ فِي الْمُجْتَمَعِ دَخَلَ الْمُحِيطُ أَوْ خَارِجَهُ، وَمَعْنَى هَذَا أَنَّ اللُّغَةَ مِنْ صُنْعِ الْمُجْتَمَعِ الْإِنْسَانِيِّ، إِضَافَةً إِلَى التَّوَاصُلِ الَّذِي لَا يَتَحَقَّقُ إِلَّا بِاللُّغَةِ الَّتِي مِنْ وَظَائِفِهَا الْأَسَاسِيَّةِ التَّعْبِيرُ عَمَّا هُوَ كَائِنٌ فِي النَّفْسِ وَتَبَادُلِ الْأَفْكَارِ بَيْنَ الْأَفْرَادِ فِي الْمُجْتَمَعِ، وَبِالتَّالِي فَهِيَ وَسِيلَةٌ لِلتَّفَاهُظِ، وَأَدَاةٌ تَوَاصُلِيَّةٌ لِلتَّعَامُلِ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ الْإِنْسَانِيَّةِ.

¹ فندريس، اللغة، ترجمة: عبد الحميد الدواخلي، ومحمد القصاص، تقديم: فاطمة خليل، ص 65.

² المرجع نفسه، ص 64.

³ عبد الواحد وائي، علم اللغة، نخضة مصر، ط 9، أبريل سنة 2004، ص 286.

لَايَحَةُ الْمَصَادِرِ وَالْمَرَاجِعِ

- أحمد مومن، اللسانيات: النشأة والتطور، ديوان المطبوعات الجامعية، ط2، سنة 2005.
- ابن جني، الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، المكتبة العلمية، الجزء الأول، باب القول على اللغة.
- دو سوسير، علم اللغة العام، ترجمة: يوثيل يوسف عزيز، مراجعة النص العربي: مالك يوسف المطلي، سلسلة كتب شهرية تصدر عن دار آفاق عربية.
- رمضان عبد التواب، التطور اللغوي، مظاهره وعلله وقوانينه، الناشر مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، سنة 1997.
- عبد الكريم بوفرة، علم اللغة الاجتماعي، مدخل نظري، أستاذ التعليم العالي بكلية الآداب والعلوم الإنسانية وجدة، المغرب، منشورات الألوكة.
- عبد الواحد وافي، علم اللغة، نخضة مصر، ط9، أبريل سنة 2004.
- فداء محمد غانم، اضطرابات النطق واللغة "أسبابها... طرق العلاج"، عمان: دار الجنان للنشر والتوزيع، ط1، سنة 2011.
- فندريس، اللغة، ترجمة: عبد الحميد الدواخلي، ومحمد القصاص، تقديم: فاطمة خليل، ص65.
- محمد سيلا وعبد السلام بنعبد العالي، اللغة، دار توبقال للنشر.